# الابداعية في الفكر الاسلامي

بقلم جعفر آل ياسين

إن الفكر الانساني — كما اعتقد — لن ينهض على «إبداعية» خالصة من التأثر بابداعية اخرى قديمة أو حديثة ... وليس الابداع هنا « خلق » افكار من عدم لا أصل له ، بل الابداع ان تضيف الى ما تقدم جديداً ، يستند في بنائه وقيامه على أصول سابقة وأصول محدثة ... ولهذا فليس « الانتاج » — بصوره المتعددة — إبداعاً ، لأن الأول يقوم على «الكمية» في الحصر ، وينهض الثاني على « الكيفية » في الفكر .

ولا ضير على العقل — أي عقل — أن يتناول أموراً تناولها غيره فيضيف إليها ، ويظهرها بصور تتباين في منهجها مع سابقتها ما دام « الاعمال » الذهني قائماً يتساوق في سيره والاصول العلمية في البحث والايجاد ، وما دام الفكر وابداعه ملك الأنسانية وحدها وهي الموكلة بان تعمل على شاكلة نوع منه او تخالفها .. ولا يدعو ذلك الى استرقاق او عبودية للمتقدم على المتأخر اطلاقاً .

والفكر الاسلامي باديء ذي بدء — تأثر بالكتاب والسنّة ، ودرج يستمد منهما ما أثر عن النبي والصحابة من أقوال وأحاديث تتصادى وهدفه الأول في التوحيد ، وتتفق وخياله العاطفي والميثولوجي .

ومجال هذا التأثر أنه أطلق للعقل سراحه في «الاداء النفسي» في النظر إلى كائنات الطبيعة واستمداد العبرة منها على وجود « الحق » المطلق الخالد . ثم لحق تلك ما أثر عن الفكر الهندي والفارسي والأغريقي من « مبتدعات » أضيفت الى تراثه ، وتفاعلت بين نتاجه وإبداعه .

ولا يهمنا من اصالة الفكر — في بحثنا هذا — ما أعوز المتقدمين البرهان عليه ، إنما تدفعنا لذلك دعوى ارسلها بعضهم ولا يزال يرددها آخرون ؛ من ان الفكر الاسلامي لم يكن ( ولن يكون ) أصيلا بما جاء في فلسفته وحكمته ، واشراقيته وصوفيته ، وما هو إلا صورة تلبست أثواباً غريبة عنها لا تحمل « الاصالة » فيما اعقبت من علوم وفنون .

ودليلهم القائم على هذه الدعوى أن العرب — بطبيعتهم الصحراوية المنبسطة — كانوا قوماً لا يعرفون من الحياة غير جانب الشظف في العيش والخشونة في الملبس والمآكل ، ومادون ذلك — في رأيهم — ترف مزدول ، وعمل مرغوب عنه .

فلما دفعت بهم الحياة الى خضمّها المديد ولجوها ، بسذاجتهم المعهودة ، فلم تبرز لديهم مقومات « التشخّص » الذاتي التي تنهض عليها الحضارات الفكرية والتطورية في كل زمان ومكان ، فاضطروا — حين فتحوا الأمصار — ان يجعلوا من لغات الاقوام الغريبة عنهم لغة لدواوينهم ، وعرّبت بعد حين ... ثم جاءتهم بضاعات الاغريق فنقلها السريان الى لغتهم ثم الى لغة العرب ، فلم تكن « مادة البحث » اصيلة وافية لديهم كما كانت عليه يوم ظهرت في بلادها ، ونبتت وترعرعت بين أفيائها .

وحينذاك نظر العربي ، فلم يجد بدّاً من تبني هذه الافكار ، فتبناها وأقام عليها صرح كيانه الفلسفي ، وقدمها لمجتمعه كبنات أفكاره سواء بسواء .

* * *

ويجمل بنا ان نلحظ — في نقد الدعوى الآنفة — أمرين يُبنى عليهما البحث القائم : (١) دراسة الحضارة — أيّ حضارة — لا يقوم على « التجريد » و « التنصل » لأن الفكر الانساني على اختلاف مراميه وتباين اهدافه ، ليس « كلّا » يقوم بذاته دون سائر المؤثرات الاخرى ، ولا احسب ان عقلا فكرياً — مهما بلغ من درجات الكمال والرقي — يمكنه التخلف عن مشاركة البيئة والتقاليد والامور الاصطناعية والحياتية ، ان كانت من حوله أو في آفاق وبقاع دونه في المدى والاتساع ..

ومن ثمة فأن نقد الفكر لا يقوم على « اطلاقية » حتمية بعيدة عن الواقع الاجتماعي لبيان وجه الحسن والقبح فيه ، ما دامت الحياة الحق لا تنهض على « السكون » و « الثبات » بل على « الديناميكية » و « الاستمرارية » في التطور المتلاحق بعضه بالبعض الآخر ... وهذا ما نلحظه بيّناً في حضارات اليونان والرومان ، خاصة اذا تعمقنا تلك السمات التي اتسمت بها المدارس الفكرية القديمة : كتأثّر الفيثاغورية بالثقافة المصرية — مثلا — من ناحية العدد والفلك ودورة العالم .. وكتأثر السقراطية والافلاطونية بالاساطير القديمة كعالم النور والظلمة والآلهة المثلى .. !

٢ — ان الفكر الاسلامي نهض في ظل دين منزّه يدعو الى « الوحدانية » في العقيدة ، ويؤمن إيماناً قاطعاً بان المادة ( او الهيولى كما سماها الفلاسفة ) هي من مبدعات الرب الذي خلق

الاشياء كلها . فلمْ يكن للفلاسفة – يومذاك – ان يجهروا بآرائهم التي بها يؤمنون – وتعاقبت الاعوام فبرز ظرف غزت فيه الثقافة الاغريقية والمسيحية حواضر العالم الاسلامي، فتوسعت الذهنيات وأعقبت نوعاً من حرية الفكر ما زلنا منها على إعجاب وإكبار .

يُضاف الى هذا ان الفكر الاسلامي ليس عربياً خالصاً كما ينعته بعضهم -- بل هو عصارة أخلاط وأنماط منوّعة ، عديدة مختلفة ، تجمعت تحت إطار واحد – هو الاسلام – بلورَها بعقيدة واحدة ، ولا اهمية للعنصر بقيامها ، قدرَ اهمية الروحانية الدينية الجامعة بين اطرافها ..

وغبّ عشرات السنين شُرحت كتب افلاطون وارسطو ، ولم يكن شرحها بالغ النضج وانما شابهُ تعقيد وغموض تعمدهما الشرّاح كي تخفى معانيها على « طبقة » المحدّثين التي انتشر ظلها على الحواضر الاسلامية والتي كانت تستمد سلطتها الزمنية من الحاكمين يومذاك .

وبعد حين من الزمن ادلى مفكرو الاسلام بآرائهم الجديدة فألّفوا في الميتافيزيقا والطبيعة والاخلاق والمنطق والطب ، فظهر الكندي والفارابي وابن سينا واخوان الصفاء وابن رشد وكثير غيرهم .

ولمْ يخلص هؤلاء من التأثر بالفلسفات القديمة والنهل منها والاعتماد عليها ... على اننا لا نؤيد القول باضافة هذا التراث الى « إبداعية » خالصة ، بل هو « مؤثر ومتأثر » ولا يدعو هذا الى نفي الاصالة عن الفكر الاسلامي – بمعناها الذي اسلفنا .

فمن المبالغة – إذن – ان ندعي ان الفلاسفة الاسلاميين لمْ يأتوا بشيء جديد .. خاصة إذا رجعنا فاستوعبنا ما دوّن اولئك من رسائل منسّقة لا تقل اهمية من الناحية العلمية والمنهجية عن تراث اليونان وفلسفتهم .

ويجب ان لا ننسى ان الاسلام اقام بوجه الفلسفة حواجز وحوائل كثيرة لم تدع لها الفرصة في الظهور والبروز والاستكمال .

ولعل في كتب الامام الغزالي وتلاميذ مدرسته ما يدل دلالة واضحة على هذا الاستقطاب الذي قاوم الفلسفة ودارسيها . وهو ما يدعونا الى نعته « بالفكر الديني الخالص » البعيد عن التلفيق ، ويستحق – على هذا الوجه – العناية والاهتمام ..

ونعتقد ان هذه الحوائل ذاتها هي التي ساعدت وعملت على ظهور « نوعية » الاصالة في الفكر الاسلامي ، لانها غالباً ما كانت اداة إغراء وتحفّز نحو التطور والبناء والتجديد في الحضارة المتفتحة . ولعلها كذلك في الثقافات الانسانية كافة .

بغداد **جعفر آل ياسين**

# ستابيح ...

حبيبي ملني صبري ، وأضنتني التباريحُ
أنا البلبلُ ترتيلي بهجرانك مذبوحُ
نشيدي وابتهالاتي لذكراك التسابيحُ
فلا تبخلْ فأنتَ الراح ، والريحانُ ، والروح
أ أنسى فيك أوطاري وأسراري واسرارك ؟
وهل تشجيك اشعاري وإلهامي قيثارك ؟

* * *

شبابي أفقٌ غامَ فآمالي آلامُ
وما غنته قيثارةُ احلامي اوهامُ
فحتامَ تمنيني ؟ وما تصدقُ احلامُ
أ أبقى عابد الوهمِ كما تعبدُ اصنامُ ؟
سئمتُ الصمت والوحدةَ يا حانَ المحبينا
فهيا يا صدى اللهفة فالأشواقُ تدعونا

* * *

بلى قد ملني الصمتُ وعافتني الخيالاتُ
وافراحي مذ ولتْ جرتْ بالهمّ كاساتُ
حبيبي عمري جرحٌ ، وايامي آهاتُ
إلى كم بالمنى أحيا ، وبالاوهام أقتاتُ
كأني دمعةُ اليتم باجفانِ المساكينِ
او اني حلمٌ طافَ باوهام المجانين

* * *

سلي عن حاليَ الليلَ ، فليلُ الحبّ أسرارُ
وليلُ الحبّ يا « شقراءُ » أحلامٌ واشعارُ
سلي ينبيكِ اني في الهوى يا فجرُ مزمارُ
واني قدحٌ ظامٍ ، وأحزانيَ خمّارُ
واني فكرةٌ فرّتْ من اليقظةِ والحسّ
أ أصحو ورحيقُ الحبّ يا « شقراءُ » في كأسي

بغداد **عبد القادر رشيد الناصري**